التغيرات الصوتية وأثرها في انحراف الدلالة داخل النظم القرآني
(دراسة تطبيقية في الأحرف اللثوية)

د. طيب عطاوي
المركز الجامعي صالحي احمد النعامة الجزائر

الملخص:

يبحث هذا المقال في قضية الهوة الكبيرة أثناء النطق التي تعتري الكلمة العربية حين تحوي أحرفاً لثويةً ، وكل هذا في خضم الخطاب القرآني الذي هو أسمى نموذج فوق فصاحة البشر جميعهم .

كما يهدف هذا البحث إلى الكشف عن حقيقة المعنى حين ينتقل من صورة لأخرى لما نستبدل الأحرف اللثوية (ث ، ذ ، ظ) بنظائرها (ت ، د ، ض) عن قصدٍ أو عن غير قصد لما نكون بصدد ترتيل كتاب الله أو قراءته عن ظهر قلب .

فالقرآن لا بد أن يُقرأ كما أنزِل ، لا كما يحلو للبعض أن يقرأه وبأية لهجة كانت ، فأيُّ تغيير يصيب أصواته أو حروفه ومقاطعه يختل المعنى ويفسد ، وإن كان إحلال الحروف بعضها بعضاً ظاهرة أصواتية إلا أن ذلك ليس حجَّة أن يتصرَّف القارئ فيه ويقرأ كيفما يريد .

Résumé

Cet article se penche sur la question de l'écart important au cours de la prononciation qui sévit dans le mot arabe tout en contenant des Interdentales, incrusté dans le discours coranique qui est la plus haute forme dans l'éloquence. Cette recherche vise également à montrerle décalage et le remplacement des

lettres gingivales (t' , d' , 6') par ses pairs (t , d , 9') intentionnellement ou non lors de la récitation du Saint Coran d'Allah ou de sa lecturee d'un trait. Le Coran doit être lu comme il a été révélé, tout changement affectera le sens et perturbera sa prosodie et son enchainement phonétique et phonologique.

تتميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات الأخرى بقوة ألفاظها وروعة عباراتها وحسن تنسيقها وجمالية نظمها، وليست هناك مشكلة بين نطق كلماتها وكتابتها عكس اللغات الأخرى؛ فالعربية كما تنطق تكتب إلا ما جاء من قبيل الإدغام ، حيث يندمج الصوتان في صوت واحد؛ وتلك ظاهرة تشغل حيزاً كبيراً في الكلام العربي ؛ خاصة في القرآن الكريم .

لكن الكلام العربي ـ كما هو معلوم ـ قد تعتريه في أغلب الأحيان تغيرات على مستوى الصوت، ليس كل الأصوات؛ إنما تلك المتقاربة في المخرج والمتقاربة في النطق ؛ نحو (ت) و(ث) / (ض) و(ظ) / (س) و(ص) / (د) و(ذ) / (ت) و(ط) / (د) و(ض) / (س) و(ز) / (ص) و(ز) / (د) و(ظ).

لا شك أن إبدال حرف من هذه الحروف بما يقابله سيؤثر في المعنى وينحرف بالدلالة إلى معنى غير مقصود ؛ هذا إذا علمنا أن كلام الله لا بد أن يُحترم ويُقرأ كما أنزِل .

وكذا في تغيُّر بعض الأصوات واستبدالها بغيرها ؛ ويكون ذلك في اللهجات العامية المتباينة من منطقة لأخرى ؛ مما ينجرُّ عنه تغير في المعنى كلية ؛ خاصة في القرآن الذي من المفروض أن تكون قراءته واحدة حسب الرواية المتواترة المعتمدة عند أهل المنطقة ؛ إلا أننا نرى أن بعضاً ممَّن غلبت عليهم لهجاتهم (1) لا يستطيعون التخلص من نطق بعض الحروف ، فيستعملونها مكان أخرى في القراءة ؛ وذلك أمر خطير كما أسلفنا عند قراءة كتاب الله الذي

لزاماً علينا أن نحتكم في مذاكرته إلى قراءة نطقية صحيحة لأحرفه كما هي مرسومة في المصحف الشريف ، وتؤدي المعنى المقصود من اللفظ ؛ لا أن ننحرف به عما وُضِع له .

وإحلال الحروف المتشابهة بعضها بعضاً ليست ثابتة ؛ فبعض اللغات يتغير عدد حروفها ويتبدَّل نطق الكثير من كلماتها ؛ خاصة الحروف اللثوية (ث ، ذ ، ظ) التي انتهى بها الأمر إلى الزوال في كثير من اللهجات العربية العامية ، وأبدِلت بنظائرها (ت ، د ، ض) أو الزاي المفخمة (2) .

صحيحٌ أن بعض الأفراد في بيئة ما لا يستطيعون أن ينزاحوا عن طريقة نطقهم لبعض الأصوات ؛ لكن على الرغم من ذلك عليهم أن يمرِّنوا أنفسهم على النطق الصحيح لها عند تلاوة كتاب الله ، وإن كانوا لا يقصدون الخطأ ، فإننا نعلم أن كل حرف من الحروف له مزيته الخاصة ، وانفراده عما سواه من بقية الحروف ؛ هذا إذا علمنا بأن " الفونيم أصغر وحدة صوتية غير دالة " لكنها قادرة على إحداث الدلالة إذا ما أدرجت مع فونيمات في كلمة ما .

إن القارئ للقرآن الكريم ـ في خضمِّ هذا كله ـ سينطق على سبيل المثال كلمة (الأذلُّ) في الآية الكريمة : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ (المنافقون ، 08) بالدال (الأدلُّ) وهو يقصد الإنسان المهان الذي يرضى بالخنوع والاستسلام ، إلا أنه بنطقه (الدال) عوض (الذال) فقد انحرف إلى معنى الإنسان المنان بعمله دون أن يقصده في فكره .

إن مثل هذا القارئ لا نلومه لأنه أراد المعنى الأول ولم يقصد الثاني ؛ لكن ذلك لا يشفع له أمام مملكة الحروف .

1 . اللهجات وتغير المعنى :

إن بعض اللهجات العامية يتغير فيها النظام الفونيمي نتيجة أسباب جغرافية واجتماعية مما يَقْلِبُ المعنى عند السامع فيُخطِّئه ؛ وتلك مشكلة تترك آثاراً عند المتعلمين الذين يقرأون القرآن عن ظهر قلب .

ففي منطقة أدرار (جنوب الجزائر) مثلا نجد بعضهم ينطقون الزاي (ز) المفخمة مكان فونيمات أسنانية (ذ ، ظ) وأخرى لثوية أسنانية (د) ، فكلمتا (الذئب ، الظبي) ينطقونهما (الزئب ، الزبي) ، وفي منطقة الأغواط والجلفة والبيض (مدن جزائرية) نجد بعض أفرادها يستبدلون الغين (غ) قافاً (ق) ؛ فينطقون مثلا (غريب) = (قريب) إلا أن ذلك لا يغير المدلول من اللفظ حسب تعابيرهم المتعارف عليها ، وذاك ما سماه دي سوسير : العلاقة التعاقبية التبادلية (غير مميزة) ، لكن إذا حدث وتغير معنى الدليل اللساني فعملية إحلال الحروف هنا تصبح مميزة .

ولا شك أن هذا الاستبدال غير المتعمَّد سيُفسد على السامعين المعاني المرجوَّة ؛ فيخلق تذبذباً في الأفكار ، وإنّه (أيْ الاستبدال) ليس كمثل ذاك الذي كان عليه الأوَّلون حينما قرأ كل قوم بلغتهم (لهجتهم) ؛ كونها لغات فصيحة نزل بها القرآن في تلك الفترة « ولو أنّ كل فريقٍ من هؤلاء أُمِرَ أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتيادُه طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتدَّ ذلك عليه ، وعظُمت المِحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان وقطع للعادة . فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متَّسعاً في اللغات ، ومتصرَّفاً في الحركات ... » (3) .

وشبيهٌ بهذا تلك القواعد التي وضعها "تروبتسكوي" Trubetzkoy (1838 ـ 1918 م) وتتعلق بالعلاقات الاستبدالية التي يأخذها الفونيم ؛ خاصة القاعدة الأولى منها * بمعنى :

إذا تبادل صوتان ـ في لغة ما ـ ولم ينتج عن هذا التبادل تغيير في معنى الكلمة فهما صورتان (تنوعان) اختياريتان لفونيم واحد ؛ مثل صوت (الجيم) الذي له صور نطقية مختلفة تحمل المعنى نفسه ؛ كمن قرأ قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ ﴾ (الأعراف ، 40) أي : يلجَ الجملُ ؛ فالمعنى لم يتغير، ولعل تقارب المخرج بين هذين الفونيمين هو الذي أوجد كثيراً من الأنماط اللغوية في مرحلة متقدمة من مراحل العربية التي كانت لا ترى بأساً من استخدام أحد الصوتين مكان الآخر في بنية الكلمة (4) مثل : الوُقنة والوُكنة ، الحَسَاقِل والحَسَاكِل ، الدَرْقلة والدَرْكلة ... وقريش تقول : كَشِطت ، وقيس وتميم تقول : قَشِطت بالقاف (5) ؛ ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ (التكوير ، 11) قرأ عبد الله بن مسعود : قُشِطت (6) .

ومنه قول شاعر من تميم :

وَلَا أَكُولُ لِكِدْرِ القَوْمِ كَدْ نَضِجَتْ وَلَا أَكُولُ لِبَابِ القَوْمِ مَكْفُولُ

وهو يعني :

وَلَا أَقُولُ لِقِدْرِ القَوْمِ قَدْ نَضِجَتْ وَلَا أَقُولُ لِبَابِ القَوْمِ مَقْفُولُ (7)

وأكثر ما تتحقق هذه القاعدة في القراءات القرآنية لكلمة (السراط) ؛ إذْ تُقرأ أحياناً مرقَّقة في شكل (السين) وأحياناً مفخَّمة في شكل (الصاد) و(الزاي) ، وفي هذا الشأن يقول ابن مجاهد (ت 324 هـ) :

« وروى عبيد بن عقيل عن أبي عمرو أنه كان يقرأ : (السراط) بالسين ، وروى هارون الأعور عن أبي عمرو : أنه ربما قرأ بالسين ، وربما بالصاد ، وروى الأصمعي عن أبي عمرو أنه قرأ (الزراط) بالزاي خالصة ... » (8) .

والعرب كانت تنطق اللفظ أحياناً على صورتين والمعنى ذاته لا يتغير ؛ من ذلك جمعهم بين الكاف والقاف ، الحاء والعين ؛ كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (يوسف ، 35) ؛ وهي لهجة عرفت عندهم بالفحفحة في قبيلة بني هذيل ، وهي

عبارة عن قلب الحاء عيناً ، وهي خاصة بكلمة (حتى) قرأ ابن مسعود في الآية الكريمة (حتى حين) :«

عتى حين » (9) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ اِمْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف ، 30) ؛ حيث قُرئ : شغفها حبّاً وشعفها معاً وهو عشق مع حرقة (10) .

وكذلك جمعهم بين الجيم والحاء ، الباء والتاء ، الحاء والخاء ، الراء والزاي ، السين والشين ، الصاد والضاد ، الكاف واللام ، الراء والغين ، السين والثاء ... إلخ .

أما لهجاتنا العامية اليوم فلا يمكن الاحتكام إليها في القراءات القرآنية ؛ كونها بعيدة عن اللغات التي نزل بها القرآن ؛ فقوله تعالى : ﴿ قالَ إنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تذهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِئْبُ وَأَنْتمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (يوسف ، 13) لو قرأها قارئ على لهجة أصحاب الأغواط أو البيض فإنه سينطق (غ) في (غافلون) قافاً (قافلون) ، والمعنى كما نلاحظ شاسع بينهما . ومثله كلمة (أغفلنا) في الخطاب التالي : ﴿ ولا تطِعْ مَنْ أغفَلْنا قلبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطا ﴾ (الكهف ، 28) ستقرأ من لدنه (أقفلنا) والمعنيان كما نلاحظ متباينان ، وأيضاً كلمة (ظالمون) في قوله تعالى : ﴿ قالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَّأْخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُونَ ﴾ (يوسف ، 79) سيقرأها بعض أهل

منطقة أدرار (مدينة جزائرية) (زالمون) وهو الذي يضرب الأزلام في القدح (11) ؛ وفي هذا ـ كما نرى ـ فساد للمعنى .

لكن هناك بعض التغيرات التي تأتي تلقائية تتحكم فيها أعضاء النطق ؛ وعلى الرغم من أنها يتغير فيها النطق إلا أن ذلك لا يغير المعنى ، فهو أمر لساني ؛ مثل :

السين في (رسول) تُنطق (رصول) ؛ أيْ : تفخيم السين فتحولت صاداً لمجاورتها الراء .

السين في (إسرار) تُنطق (إصرار) ؛ أيْ : تفخيم السين فتحولت صاداً لمجاورتها الراء .

الدال في (مدرار) تُنطق (مضرار) ؛ أيْ : تفخيم الدال فتحولت ضاداً لمجاورتها الراء .

السين في (بساط) تُنطق (بصاط) ؛ أيْ : تفخيم السين فتحولت صاداً لمجاورتها الباء .

السين في (خسارة) تُنطق (خصارة) ؛ أيْ : تفخيم السين فتحولت صاداً لمجاورتها الخاء .

كما أن كثيراً من القرَّاء ـ خاصة الذين لا يجيدون أحكام التجويد ولا يضعون الحرف موضعه عند النطق ـ يخطئون في كثير من الألفاظ ؛ فيغيِّرون المعنى من حيث لا يشعرون ؛ خصوصاً بين الأحرف التي لها المخرج نفسه أو قريبة منه ؛ فنجدهم لا يفرِّقون بين (الدال والذال) وبين (التاء والثاء) وبين (الضاد والظاء) من حيث النطق لا من حيث الكتابة .

وإحلال الحروف بعضها بعضاً ظاهرة أصواتية ليست وليدة العصر الحديث ؛ إنما لها جذورها التاريخية التي جعلت من هذه الأصوات تتحول ويحل بعضها مكان بعض ، ومنه نطقُنا الظاء (ظ) ضاداً (ض) في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ

يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة ، 22–23) فتبقي على المعنى نفسه لكلمة (ناضِرة) ؛ بينما هناك فرق واسع بين الكلمتين ؛ فـ (ناضرة = مشرقة ، حسنة ، مضيئة) و (ناظرة = تنظر إلى وجه الله تعالى وجلاله وتهيم في جماله) . (12)

إضافة إلى اشتراك بعض الفونيمات في الصفات ؛ كـ (س) و(ص) في الهمس والصفير والرخاوة ـ في ظل التضادات الفونولوجية عند تروبتسكوي ** ـ حيث يفسد المعنى في هذا الإطار عند القراءة ، كالآية الآتية : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران ، 148) فلو فخَّم القارئ صوت (س) لتغيّر المعنى وصارت (المُحصِنين) .

والعكس في الخطاب الآتي : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ (يوسف ، 48) فلو رقّق القارئ صوت (ص) لفسد المعنى وصار الإحسان بدل التحصين (تحسنون) .

وعليه نتساءل هل يجوز لنا أن نقرأ بهذه الفوضى في كتاب الله ؟ بالطبع لا ؛ لأن هذا لا يتقبَّله عقلُ لبيبٍ ولا تستسيغه نفسُ حكيم ، ولا يمكننا أن نعطي الحق لأنفسنا أو غيرنا بذلك وأن نخلق الأعذار فيه ، فعلينا أن نترك لهجاتنا جانباً وأن نقرأ الآيات القرآنية كما هي في المصحف دون تحريفٍ أو تبديل .

وربما يتساءل البعض لماذا جاز للأوائل أن يقرأوا بلهجاتهم ـ على الرغم من أنها لا ترقى إلى لهجة قريش التي نزل بها الوحي في فصاحتها ـ ولا نقرأ نحن بلهجاتنا اليوم ؟

إن هذا الأمر يتعدى ذلك بكثير ؛ فاللهجات التي قرأ بها الأوائل أقرَّها الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع حينما قال بنزول القرآن على سبعة أحرف ؛ بينما لهجاتنا نحن لا ترقى إلى هذه الأحرف واللهجات التي ذكرها

النبي في حديثه من عدة جوانب ؛ وتخالف الرسم القرآني ، وقد ذكر ابن قتيبة (ت 270 هـ) في وجوه القراءات ، وهل يجوز أن نقرأ بها جميعها حينما قال : « كل ما كان منها موافقاً لمصحفنا غير خارج من رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به . وليس لنا ذلك فيما خالفه ؛ لأن المتقدمين من الصحابة والتابعين قرأوا بلغاتهم ، وجَرَوا على عادتهم ، وخلَّوا أنفسهم وسَوْمَ طبائعهم ، فكان ذلك جائزاً لهم ، ولقوم من القُرَّاء بعدهم مأمونين على التنزيل ، عارفين بالتأويل ؛ فأما نحن معشر المتكلفين ؛ فقد جمعنا الله بحسن اختيار السلف لنا على مصحفٍ هو آخر العرض ، وليس لنا أن نعْدُوَه ، كما كان لهم أن يفسِّروه ، وليس لنا أن نفسِّره ، ولو جاز لنا أن نقرأه بخلاف ما ثبت في مصحفنا ، لجاز أن نكتبه على الاختلاف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير ، وهناك يقع ما كرهه لنا الأئمَّة الموفَّقون رحمة الله عليهم » (13) .

إذن ؛ الصوت الذي رأيناه في هذه التحولات النطقية ليس ثابتاً في اللغة العربية كما هو في اللغات الأخرى كالفرنسية والانجليزية مثلا ؛ بل هو نسبي فقط في بعض اللهجات ؛ فصوت (غ) رمز مركب من (غ) و(ق) في لهجة أهل الأغواط والبيض والجلفة ، والصوت (ذ) رمز مركب من (ذ) و(ز) في لهجة أصحاب أدرار ، والصوت (ظ) رمز مركب من (ظ) و(ض) عند الذين لا يفرِّقون في النطق بين هذين الفونيمين ، والأمر نفسه بالنسبة للمورفونيم (ث) فهو مركب من (ث) و(ت) للعلة نفسها ***.

ومن بين الأسباب التي كانت وراء هذه التغيرات والتبدلات النطقية طبيعة البيئة التي ينتمي إليها الأفراد ؛ إذ تتميز كل واحدة بصفات صوتية خاصة تخالف كل المخالفة أو بعضها صفات لهجة أخرى في اللغة نفسها ، هذه الصفات التي ترجع أحياناً إلى بنية الكلمة مما يغيِّر من شكلها في فونيم أو

اثنين من فونيماتها ، وكذلك انتقال اللغة من جيل إلى جيل عن طريق التلقين والتعلم ، إضافة إلى التأثر بأصوات لغة أخرى (14) .

2 . تباين المعنى في الحروف اللثوية وما يقابلها :

أ . (الضاد) مكان (الظاء) :

1 . ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ** ﴾ **(الحجر، 14)** .

ظلُّوا من (ظلَّ) إحدى أخوات (كان) الناصبة ، فعل ناقص بمعنى استمر وهو المقصود من الآية ، أيْ : يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدَّقوا بالحق الذي جاءهم من عند الله (15) . أمَّا ضلُّوا من الفعل (ضلَّ) فعل تام بمعنى زلَّ عن الشيء ولم يهتد إليه ، وكذا الانحراف عن الطريق ، وليس ذاك هو المقصود من الآية .

2 . ﴿ **كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** ﴾ **(الإسراء ، 20).**

محظور من الفعل (حظر) والمقصود منه في الآية ممنوعاً ؛ لا يمنعه أحد ولا يردُّه رادّ (16) . أمَّا محضور اسم مفعول من الفعل الثلاثي حضر ، والمحضور من الأشياء السريع التلف ، وليس هو المقصود من الآية .

3 . ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء ، 98) .

عضام وعظام ليستا بمعنى واحد ، فالأولى جمع عضم بمعنى أداة من خشب أو غيره ذات أصابع يُدرَّى بها القمح ونحوه (17) أما الثانية فهي التي يُكسى بها اللحم كما في الآية ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا

آخَرَ ﴾ (المؤمنون ، 14) فليس المقصود من الآية أإذا كنا أدوات من خشب في قبورنا هل سيُحيينا الله ؟ إنما المقصود حينما نفنى ونصير عظاماً في قبورنا هل سيُحيينا الله من جديد لمحاسبتنا .

4 . ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (الحجر ، 16) .

الناظرين اسم فاعل من الفعل الثلاثي (نظر)النظر والرؤية ، أما الناضرين من النضارة والإشراق وليس هو المقصود من الآية ؛ إذ ليس المقصود أن الله زيَّن السماء الدنيا لأصحاب الوجوه النيِّرة دون الآخرين من الناس ؛ بل إنه زيَّنها لجميع الناس دون استثناء .

5 . ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (الحجر ، 36 . 37 . 38) .

أنظرني بمعنى أخرني وأمهلني إلى يوم القيامة ، بينما أنضرني اجعلني حسن المنظر إلى يوم القيامة وليس ذاك هو المقصود من تمني إبليس ؛ لأنه « سأل تأخير عذابه زيادةً في بلائه ، كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يُبعثون ، ألاَّ يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ، ولا بعده » (18) .

6 . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات ، 12) .

الضن هو البخل ، وليس هو المقصود من الآية ، أما الظن فهو الشك وعدم اليقين وهو المقصود من الآية ، فالله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين باجتناب الكثير من الظن والشك لأنها محل المهالك إذالم يتيقنوا من الفعل ، وليس المعنى من الآية أن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين اجتناب الكثير من البخل ولا لأن بعضه إثم .

ب . (الدال) مكان (الذال) :

1 . ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ... ﴾ (النحل ، 13) .

ذرأ في هذه الآية معناها خَلَقَ ؛ أيْ : " لما نبَّه سبحانه على معالم السموات ، نبَّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والنباتات والمعادن ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص » (19) . أمَّا درأ بمعنى دفع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (النور ، 08) أيْ : ويدفع عنها العذاب (الحدّ) .

2 . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل ، 43) .

الدِّكر (بالدال المهملة) لعبة يلعب بها الحبش والزنوج (20) أما الذكر (بالذال المعجمة) في الآية فالمقصود به أهل الكتب السماوية (التوراة والانجيل) . وعليه ليس المقصود هو سؤال أهل هذه اللعبة في أمور الدين ؛ لأن ذلك منافياً للمنطق والعقل ، لكن المعنى المراد من الآية هو سؤال مؤمني أهل الكتاب يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا من البشر (21) .

3 . ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ (الإسراء ، 18) .

مدموم (بالدال المهملة) اسم مفعول من الاسم دم ، أما مذموم (بالدال المعجمة) من الفعل (ذمَّ) وهو عكس مَدَحَ ؛ أيْ : المراد من الآية أنه من كان يريد الدنيا (الدار العاجلة) لم يُعطِه اللهُ إلا ما شاء منها ، وفي الآخرة سيكون مآله النار (جهنم) يصلاها مطَّرداً مُبعداً من رحمة الله (22) . وليس المقصود يصلى جهنم ملطَّخاً بالدماء .

4 . ﴿ ... إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (الإسراء ، 57) .

محذور اسم مفعول من الفعل حَذَرَ ، والمقصود منه في الآية أن بعض الناس إن لم يحذروا عذاب الله لجهلهم فهو لا يخرج من كونهم بحيث يجب الحذر عنه (23) أما محدور من الفعل حدر بمعنى منحدر من الأرض (24) وليس ذاك القصد منه في هذا الموضع .

5 . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (الحديد ، 26) .

هذه الآية تتحدث عن بيان ما أنعم الله من النعم الجسام به على أنبيائه ، فذكر أنه شرَّف سيدنا إبراهيم وسيدنا نوحاً عليهما السلام برسالة التوحيد ، وجعل في عَقِبِهما النبوة والكتاب من الذين جاءوا من بعدهم من الأنبياء والرسل (25) . أما (ذُرِّيتهما) بالدال المهملة فمعناها حُسْنُهُما وبهاؤهما ، وليس ذاك هو المقصود من الآية .

ج . (التاء) مكان (الثاء) :

1 . ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ... ﴾ (النحل ، 69) .

التمرات خاصة بالنخيل ؛ أما الثمرات فلكل أنواع الفاكهة ، فقد أوحى الله للنحل أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي هيأها الله سبحانه منقادة لأمره ؛ كي تجمع ما تحتاجه لإنتاج العسل ، فتبني الشمع من أجنحتها ، وتقيء العسل من فِيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها (26) .

2 . ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (الإسراء ، 102) .

متبور اسم مفعول من الفعل تبر بمعنى مهلوك ، أما مثبور من الفعل ثبر بمعنى مخبول لا عقل له ، وذاك هو المقصود من الكلمة في هذه الآية .

3 . ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ (الفتح ، 10) .

نكث في هذه الآية هي نقض المواثيق وإخلاف العهود ، وإذا أبدل القارئ الثاء تاءً صارت نكت ؛ بمعنى أتى بنُكتةٍ ؛ أيْ بكلامٍ مُسْتَمْلَحٍ ، وعليه ليس المقصود في هذا الموضع أنه من مزح وأضحك الناس فإنما يضحك على نفسه ، إنما المراد من أخلف عهوده فهو يخلفها على نفسه ويضر بها نفسه .

4 . ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة، 197) .

رَفَثَ من رَفَثَهُ يَرْفُثُهُ ويَرْفِثُهُ : كسره ، ودقَّه ، وانكسر ، واندقَّ ، وانقطع (27) فيصبح معنى الآية بقراءة التاء بدل الثاء أن الله يلزم الحجاج بأن لا يكسِّروا ، بينما المقصود أن لا جِماع ولا غشيان النساء في الحج (28) .

5 . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (الشورى، 29) .

بثَّ من البتّ وهو القطع المستأصل ، فكل شيء أنفذتَه وأمضيتَه فقد بتتَّه (29) أما بثَّ فهي من البثّ وهو تفريق الشيء وإظهاره ، والمقصود منه في الآية : وضع الأشياء في أمكنة كثيرة مما لا يعلمه إلا الله تعالى .

إذن ؛ من خلال هذه الأمثلة تبيَّن لنا بأن إبدال الحروف اللثوية بما يقابلها أثناء النطق يؤدي إلى تغيير المعنى تماماً ، وعليه لا بد من قراءة القرآن الكريم بتدبُّرٍ وإحكامٍ ؛ بدءاً بأصواته وحروفه التي تشكِّل بنية اللفظ ، وتميِّزه عن غيره من الألفاظ .

الإحالات والهوامش

(1) . اللهجة عبارة عن مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة .

(2) . فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت (لبنان)، ط 2، (د ت)، ص 54 .

(3) . تأويل مشكل القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تعليق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت (لبنان) ، ط 1 ، 2002 ، ص 32 .

* والقاعدتان الثانية والثالثة كالآتي :

. القاعدة الثانية :

إذا تبادل صوتان . في لغة ما . ونتج عن هذا التبادل تغيير في معنى الكلمة فهما صورتان (تنوعان) واقعيتان لفونيمين مختلفين ؛ مثل : قام . دام . لام ، فإذا ما حلت القاف مكان اللام أو الدال أو العكس حدث تغيير في الدلالة .

. القاعدة الثالثة :

إذا كان صوتان . في لغة ما . بينهما علاقة أكوستيكية أو نطقية ، ولا يمكن أن يقعا في البيئة الصوتية نفسها فإنهما صورتان تركيبيتان (تنوعان تكامليان) للفونيم نفسه ؛ كصوت (النون) الذي تتغير صوره حسب مجاورته للحروف من كلمة لأخرى .

(4) ـ التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية ، آمنة صالح الزعبي ، دار الكتاب الثقافي ، اربد (الأردن) ، 2005 ، ص 62 وما بعدها .

(5) ـ سر صناعة الإعراب ، أبو الفتح عثمان بن جني ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، ج 1 ، (د ط) ، (د ت) ، ص 247 .

(6) ـ الإبدال والمعاقبة والنظائر ، أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق : عز الدين التنوخي ، المجمع العلمي العربي ، دمشق (سوريا) ، 1962 ، ص 81 .

(7) ـ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، أبو الحسين أحمد بن فارس ، المكتبة السلفية ، القاهرة (مصر) ، 1910 ، ص 25 .

(8) ـ السبعة في القراءات ، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، (د ط) ، (د ت) ، ص 106 .

(9) ـ فقه اللغة ، حاتم صالح الضامن ، دار الآفاق العربية ، القاهرة (مصر) ، ط 1 ، 2007 ، ص 60 .

(10) ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد عبد الرحيم ، دار الفكر بيروت (لبنان) ، ط 1 ، 2005 ، ص 422 .

(11) . مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مادة (ز ل م)، مراجعة: أحمد جاد ، دار الغد الجديد ، القاهرة (مصر) ، ط 1 ، 2007 ، ص 151 .

(12) . صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني، دار الهلال، بيروت (لبنان)، ج 2 ، (د ط) ، (د ت) ، ص 427 ـ 428 .

** من أنواع التضاد التي استنتجها " تروبتسكوي " :

ـ التضاد السالب (Privative opposition) : ويكون بين فونيمين متماثلان تماثلا كبيرا ، غير أن أحدهما يتمتع بسمة صوتية غير التي في الفونيم المقابل ؛ مثل : / س / مقابل / ز / ـ / ت / مقابل / د / .

ـ التضاد المتكافئ (Equipollent opposition) : ويكون بين فونيمين أحدهما يتمتع بسمة صوتية غير كائنة في الفونيم المقابل ولا الفونيمات الأخرى ؛ مثل : / ر / مقابل / د / ـ / خ / مقابل / ط / .

ـ التضاد الثنائي (Bilateral opposition) : ويكون بين فونيمين مشتركين في أكبر عدد ممكن من الخصائص بالمقارنة مع الأزواج الأخرى كالتي بين : / س / مقابل / ص / إذ يشتركان في صفات الهمس والصفير والرخاوة .

. التضاد المتناسب (Proportional opposition) : وهو الذي تكون فيه الصفة ليست مقتصرة فقط على الفونيمين المتقابلين ؛ بل تتعداهما إلى الفونيمات الأخرى ؛ كصفة الجهر مثلا التي ليست مقتصرة على فونيمي / ظ / و / ض / ، وصفة الإطباق التي لا تنحصر على فونيمي / ص / و / ط / بل نجدها أيضاً في / ض / و / ظ / .

(ينظر اللسانيات : النشأة والتطور ، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 2 ، 2005 ، ص 144) .

(13) . تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، ص 34 .

*** وأهم من ذلك كله أن نطق بيئة معيّنة لأصوات معيّنة على خلاف ما ينطقها به أهل بيئة أخرى ، وهو مما يقتضيه البعد الاجتماعي عندهم ومخالف لما عند غيرهم ، يقول د. شريف استيتيه : « إن البيئة اللغوية هي دون غيرها الحكم الفيصل على طريقة نطق الفونيم وألوفوناته ، مما يعني ضرورة إخراج ما ليس من البيئة اللغوية المعينة للفونيم ، فنطق الأعاجم للصوت لا يجعله من التنوعات الألوفونية ، ونطق المعوقين أو الذين يعانون من لثغات ، أو عيوب نطقية في أداء الصوت ، ليس من تنوعاته الألوفونية . ونطق بعض المغنيين والمطربين لصوت ما على خلاف ما ينطق به الناس ، ليس من تنوعات ذلك الفونيم . ونطق الإنسان الذي يجري بسرعة أو يصعد سلماً مسرعاً ، لا يعد من التنوعات الألوفونية » (ينظر كتابه اللسانيات : المجال ، الوظيفة ، المنهج ، عالم الكتب الحديث ، اربد (الأردن) ، ط 2 ، 2008 ، ص 81 . 82) .

(14) . ينظر فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ، ص 55 وما بعدها .

(15) . تفسير القرآن العظيم ، الإمام أبو الفداء الحافظ عبد الله بن كثير الدمشقي ، تحقيق : سامي بن محمد السلامة ، دار طيبة ، الرياض (المملكة العربية السعودية) ، ج 4 ، ط 2 ، ص 528 .

(16) . المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 63 .

(17) . لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر ، بيروت (لبنان) ، مادة (ع ض م) ، ج 12 ، ط 4 ، 2005 ، ص 409 .

(18) . الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (لبنان) ، ج 12 ، ط 1 ، 2006 ، ص 211 .

(19) . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ج 4 ، ص 561 . 562 .

(20) . لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (د ك ر) ، ج 4 ، ص 290 .

(21) . الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، القرطبي ، ج 12 ، ص 328 .

(22) . المصدر نفسه ، ج 13 ، ص 48 .

(23) . تفسير الفخر الرازي ، محمد فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، بيروت (لبنان) ، ط 1 ، ج 20 ، 1981 ، ص 234 .

(24) . مفردات ألفاظ القرآن ، أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل ، صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، 2009 ، ص 108 .

(25) . تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ج 27 ، ط 1 ، 1946 ، ص 184 .

(26) . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ج 4 ، ص 582 .

(27) . القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، دار الحديث ، القاهرة (مصر) ، مراجعة : أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد ، مادة (ر ف ت) ، (د ط) ، 2008 ، ص 654 .

(28) . جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، القاهرة (مصر) ، ج 3 ، ط 1 ، 2001 ، ص 465 .

(29) . مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الفكر ، بيروت (لبنان) ، (باب الباء وما بعدها) ، ج 1 ، 1979 ، ص 170 .

ـ المصادر والمراجع المعتمدة :

(1) . الإبدال والمعاقبة والنظائر، أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق : عز الدين التنوخي، المجمع العلمي العربي ، دمشق (سوريا) ، 1962 .

(2) . تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تعليق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان) ، ط 1 ، 2002 .

(3) . التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية ، آمنة صالح الزعبي ، دار الكتاب الثقافي، اربد (الأردن) ، 2005 .

(4) . تفسير الفخر الرازي ، محمد فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، بيروت (لبنان) ، ط 1 ، ج 20 ، 1981 .
(5) . تفسير القرآن العظيم ، الإمام أبو الفداء الحافظ عبد الله بن كثير الدمشقي ، تحقيق : سامي بن محمد السلامة ، دار طيبة ، الرياض (المملكة العربية السعودية) ، ج 4 ، ط 2 ، (د ت) .
(6) . تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ج 27 ، ط 1 ، 1946 .
(7) . جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، القاهرة (مصر) ، ج 3 ، ط 1 ، 2001 .
(8) . الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (لبنان) ، ج 12 ، ط 1 ، 2006 .
(9) ـ السبعة في القراءات ، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ، (د ط) ، (د ت) .
(10) ـ سر صناعة الإعراب ، أبو الفتح عثمان بن جني، المكتبة التوفيقية ، مصر ، ج 1 ، (د ط) ، (د ت) .
(11) ـ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء ، المكتبة السلفية ، القاهرة (مصر) ، 1910 .
(12) . صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار الهلال ، بيروت (لبنان) ، ج 2 ، (د ط) ، (د ت) .
(13) ـ فقه اللغة ، حاتم صالح الضامن ، دار الآفاق العربية ، القاهرة (مصر) ، ط 1 ، 2007 .
(14) . فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ، دار الفكر ، بيروت (لبنان) ، ط 2 ، (د ت) .

(15) . القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، دار الحديث ، القاهرة (مصر) ، مراجعة : أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد ، مادة (ر ف ت) ، (د ط) ، 2008 .

(16) . لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر ، بيروت (لبنان) ، مادة (ع ض م) ، ج 12 ، ط 4 ، 2005 .

(17) . اللسانيات: المجال ، الوظيفة ، المنهج ، محمد شريف استيتيه ، عالم الكتب الحديث ، اربد (الأردن) ، ط 2 ، 2008 .

(18) . اللسانيات : النشأة والتطور ، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 2 ، 2005 .

(19) . مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مادة (ز ل م) ، مراجعة : أحمد جاد ، دار الغد الجديد ، القاهرة (مصر) ، ط 1 ، 2007 .

(20) . المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد عبد الرحيم ، دار الفكر بيروت (لبنان) ، ط 1 ، 2005 .

(21) . مفردات ألفاظ القرآن ، أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل ، صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، 2009 .

(22) . مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الفكر ، بيروت (لبنان) ، (باب الباء وما بعدها) ، ج 1 ، 1979 .